

المدينة الإسلامية والسودانية مداخل متعددة

كلية العلوم الحضرية - جامعة الزعيم الأزهري

أ.د. الأمين العوض حاج

المستخلص:

تتميز مدينة الاسلامية ان تصاميمها و مبانيها لها صفات متفردة. غير ان هذا التفرد لم يقف عائقاً امام ظهور صفات و خصائص مشتركة لهذه المدن اثرت . لظروف البيئة و الحياة المعيشية ومعتقدات وعادات وتقاليد المجتمع. أتبع الورقة المنهج الوصفي و التحليلي لدراسة المدن أن معظم المدن قبل الإسلام اقيمت في أودية الأنهار مثل النيل أو دجلة أو الفرات ودخلت بعد الفتح الإسلامي في منظومه الدول الإسلامية. وكان الطابع التخطيطي والاجتماعي الغالب على المستوطنات البشرية الرئيسية قبل الإسلام هو الطابع اليوناني او الروماني للمدينة، أما غير ذلك من المستوطنات فلم تكون سوى تجمعات سكنية صغيرة أشبه بالقرى عنها بالمدن البيئة الطبيعية كالموقع وطبيعة الأرض والخامات المعدنية الموجودة في الأرض والمناخ، تلعب دورا هاما في وجود المدن. فطبيعة الموقع تجعل منه موقع زراعي أو عسكري أو تجاري أو تعديني او صناعي. و مصادر المياه تلعب دورا مهما في نشأة و تطور المدن تأثرت المدينة الاسلامية بمدن ما قبل الاسلام، فأنها ايضا شهدت تحولات وتغيرات على نسيجها الحضري و السكاني بفعل عوامل متتابعة عبر الزمان والمكان نمو الهجرة من الريف الى المدينة بسبب التفاوت التنموي لصالح للمدن لتعتمد معظم هذه المدن سياسات اسكانية عاجلة باستيرادها لائماط جاهزة غربية في عمومها و من الناحية الاقتصادية فان المدينة الإسلامية تعتمد اعتماد أساسي على الأنشطة التجارية لعب العامل الثقافي الإسلامي دوراً مهماً في ظهور المدن وتشكيلها، و تمت المدن بفضل التراكمات الثقافية التي عملها الإنسان في قيام واستمرار هذه المدن.

The Islamic and Sudanese city has multiple entrances

Prof. Al-Amin Al-Awad Ahmed

Abstract :

Islamic City is distinguished by the fact that its designs and buildings have unique qualities. However, this uniqueness did not stand in the way of the emergence of common characteristics and characteristics of these cities. To the conditions of the environment, living life, and the beliefs, customs and traditions of society. The paper followed the descriptive and analytical approach to studying cities. Most of the cities before Islam were established in river valleys such as the Nile,

Tigris, or Euphrates, and after the Islamic conquest they entered the system of Islamic countries. The dominant planning and social character of the major human settlements before Islam was the Greek or Roman character of the city. As for other settlements, they were only small residential clusters more like villages than cities. The natural environment, such as the location, the nature of the land, the mineral ores found in the land, and the climate, play an important role in the existence of cities. The nature of the site makes it an agricultural, military, commercial, mining, or industrial site. Water sources play an important role in the emergence and development of cities. The Islamic city was influenced by pre-Islamic cities. It also witnessed transformations and changes in its urban and population fabric due to successive factors across time and place. The growth of migration from the countryside to the city due to the developmental disparity in favor of the cities. Most of these cities adopted urgent housing policies by importing ready-made Western patterns in general. From an economic standpoint, the Islamic city relies mainly on commercial activities. The Islamic cultural factor played an important role in the emergence and formation of cities, and the cities grew thanks to the cultural accumulations made by man in the establishment and continuation of these cities

مقدمه:

تتميز مدينة الاسلاميه بصفات خاصه متأثره بموقعها وخصائصه وموضعها وان تصاميمها و مبانيها لها صفات متفرده. غير ان هذا التفرد لم يقف عائقاً امام ظهور صفات و خصائص مشتركة لهذه المدن الإسلاميه اثرت فيها عوامل مختلفه نابعة من الظروف البيئيه و الحياه المعيشيه ومعتقدات وعادات وتقاليده المجتمع. عمرانها فان الجامع، و الساحة، والميدان، والسوق والفناء الداخلي هي الملامح الاصلية للمدينه الاسلاميه، و بمرور الزمن و مع التوسعات الكبيره التي شهدتها معظم المدن الاسلاميه، تأثرت هذه الملامح و تدخلت فيها استعمالات الارض بأنماط مغايره تمام عن النمط التقليدي و بالذات النمط الحضري السكاني، هذا التأثير افقد المدينه خصوصيتها بفعل عوامل منها تقنيه واقتصاديه و اخرى اجتماعيه وبيئيه في تحديد هذه الانماط ضمن نسيج المدينه عبر فترات زمنيّه من توسع و نمو المدينه العربيه الاسلاميه، مما يتطلب بذل الجهود لإعادة تفهم اكثر لطبيعه ما يجب ان يكون عليه تخطيط هذه المدينه في قدرتها على التكيف المقترن بالتفاعل الحي مع متطلبات العصر . ومعلوم إن المدينه الإسلاميه قد مرت بعدة مراحل من حيث الازدهار و الأفول عبر عمرها والقيام من جديد(خريظه العالم الإسلاميه). كذلك فان المدينه السودانيه تشابهت مع المدن الإسلاميه مع قليل من الخصوصيه البيئيه و الحضاريه ووفرة الموارد.



خريطة أهم مدن العالم الإسلامي

أهميه الورقة:

نبتت اهمية هذه الورقة من كونها تهتم بدراسة موضع شديد الأهمية وقليل ما يتطرق له الباحثون لارتباطه بمتغيرات فيها كثير من الجدل وان المدن تعتبر بوتقة الانصهار و مجمع الاختلافات المادية منها و الروحية و العقائدية . كما ان معظم ما كتب عن المدن في الآونة الأخيرة تركز على المدن الكبرى واشكالاتها حضريه او التركيبية او السياسية. وقليل ما كتب عن المدن الإسلامية و دورها في النسيج الحضري قديمة و حديثه واهميتها التاريخية و ما خلفته من قواعد واسباس حضريه و ثقافيه مازالت حتى اليوم.

أهداف الورقة :

- تهدف هذه الورقة للتعرف على المدن الإسلامية و المدن السودانية و تطورها ودورها في حياه المسلم في مجموعه من المحاور.
- تهدف الورقة كذلك لمعرفة الأسباب التي ادت الى تكوين و توسع المدن الإسلامية و السودانية واثار ذلك علي التنمية .
- كما تحاول الورقة التعرف على الوضع الراهن للمدن الإسلامية و السودانية دورها في بناء وتكيف مع المجتمع الحضري و تنميته.

منهجيه البحث:

اتبعت الورقة المنهج الوصفي و التحليلي لدراسة المدن اعتمدت الورقة علي عدة مصادر ومن اهمها الدراسات السابقة والتي شكلت جزئيه مهمه في هذه الورقة وتمت مراجعه بيانات تعدادات السكان ومعلومات مأخوذة من التقارير الدورية وتقارير الأمم المتحدة. كما سوف تتناول هذه الورقة عده محاور مهمه مرتبطة بالمدينة الإسلامية.

المدخل التاريخي:

أن معظم المدن قبل الإسلام اقيمت في أودية الأنهار مثل النيل أو دجلة أو الفرات ودخلت بعد الفتح الإسلامي في منظومه الدول الإسلامية. وكان الطابع التخطيطي والاجتماعي الغالب على المستوطنات البشرية الرئيسية قبل الإسلام هو الطابع اليوناني او الروماني الذي يعتمد على التخطيط الشطرنجي المتساوي التقسيمات مع وجود مركز إداري وتجاري للمدينة، أما غير ذلك من المستوطنات فلم تكون سوى تجمعات سكنية صغيرة أشبه بالقرى عنها بالمدن مع وجود فراغات من الاراضي الفضاء بينها. وتظهر الدلائل الأثرية أن معظم مساكن هذه التجمعات السكنية كان لها أفنية داخلية بسبب الظروف المناخية والبيئية. كما كانت توجد أنظمة هندسية راقية لمد المدن بالمياه والري. وفي هذه المرحلة التاريخية الاولى شهدت المنطقة الإسلامية نمو عمراني كبير الأمر الذي أعطى عمران الدولة الإسلامية خصائصه البيئية المتميزة. كما أتبعَت التعاليم الإسلامية لإدارة المدن ببعدها الاجتماعي والحضاري وهذبت من كيان المدن التي فتحها الإسلام كما أتجه معظم سكان الحضر في العصور الإسلامية ناحية الداخل بعيداً عن المدن الساحلية فمثلاً أنتقل مقر الحكم في مصر من الإسكندرية إلى الفسطاط في الداخل وأنتقل مقر الحكم من تونس على الساحل إلى القيروان في الداخل التونسي وفي السودان كانت المدن قليلة و متناثرة و معظمها مدن تجارية. ازدهرت في السودان مجموعة من الحضارات القديمة في شمال السودان وأواسطه وان هناك مدن كثيرة كانت مزدهرة في العصور القديمة بداية مبروي حتى علوه وسوبا و سنار نشأة هذه المدن منذ أمد بعيد ويعتبر النيل وما حوله المقر الرئيس لمعظم المدن في تلك الفترة ومازال النيل يلعب هذا الدور حتى الان عدا في بعض الحالات حيث قامت المدن الإسلامية عليه منها سنار و الحلفايا (العبدلاب).

لكن في القرن السادس الميلادي ظهرت مرحلة جديد حيث بدأت المدينة الإسلامية في الركود و التوقف العمراني ، حيث لعبت الظروف التاريخية التي تعرض لها العالم الإسلامي في ذلك الحين دور أساسي في الركود ، منذ عصر المماليك وجزء من العصر التركي حيث أصاب المدن تخلف اقتصادي كبير برز في التخلف العمراني كما ان تحول التجارة العالمية في ذلك الوقت بين الشرق والغرب من الطريق البري إلى الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح.

اما في الفترة التي تلت و عند ظهور الاستعمار الغربي حيث تأثرت معظم الدول الاسلامي بالغزو الأجنبي ظهرت بوادر تغيرات تاريخيه . و مرور الزمن و مع التوسعات الكبيرة التي شهدتها معظم المدن الاسلامية، تأثرت الملامح التاريخية وتداخلت فيها استعمالات الارض بأنماط مغايرة تمام عن النمط التقليدي و بالذات النمط الحضري السكاني، هذا التأثير افقد المدينة خصوصيتها بفعل عوامل منها تقنية واقتصادية و اخرى اجتماعية وبيئية في تحديد هذه الانماط ضمن نسيج المدينة عبر فترات زمنية من توسع و نمو المدينة الاسلامية، مما يتطلب بذل الجهود لإعادة تفهم اكثر لطبيعة ما يجب ان يكون عليه تخطيط هذه المدينة في قدرتها على التكيف المقترن بالتفاعل الحي مع متطلبات العصر وفي السودان ظهرت مجموعه من المدن الجديدة و خذت حيزها المكاني و العمراني و ظهرت المباني الحديثة و المتخصصة. وفي العصر الحديث تأثرت المدينة الإسلامية بصورة كبيرة بالعوامل الاقتصادية و الاجتماعية و ظهور اثر العولمة و التقنية الحديثة ووسائل الاتصالات مما اوجب التأقلم مع التطورات الحديثة. هذا الوضع جعل المدينة الإسلامية تصارع من

أجل الاستمرارية بل من أجل الوجود في بعض الأحيان. ففي بعض الدول مثل المغرب افردت للمدينة الحديثة مقر خارج نطاق المدينة القديمة فأصبحت هناك مدينة قديمة و مدينة حديثة. و في السودان ادى الوضع الراهن الى توسع المدينة وزيادة السكان مما اوجد عدة ضغوط على المدينة. وفي العصور الحديثة برزت مدن مثل الخرطوم وود مدني وبربر وشندي ومروي ودنقلا وكسلا والأبيض كمدن اداريه منذ العهد التركي . وازدهرت في المهديّة مدينة أم درمان وكانت من اكبر المدن في أفريقيا بعد ان هاجرت إليها اعداد كبيرة من السكان من غرب السودان. و في عهد الحكم الثنائي (الإنجليزي- المصري) ظهرت مدن بورتسودان وحلفا وعطبرة وكوستي. نسبة لزيادة السكان في هذا المدن نمت نموًا مستمرًا وان اختلف هذا النمو من مدينة الى اخرى (خريطة السودان) .



خريطة مدن السودان

المدخل البيئي:

وتشمل البيئة الظروف الطبيعية كالموقع وطبيعة الأرض والخامات المعدنية الموجودة في الأرض والمناخ، وهي تلعب دوراً هاماً في وجود المدن. فطبيعة الموقع تجعل منه موقعاً زراعياً أو عسكرياً أو تجارياً أو تعدينيّاً أو صناعياً. و مصادر المياه تلعب دوراً مهماً في نشأة و تطور المدن فقد قامت المدن الأولى في دجلة والفرات ومصر حيث توفرت الظروف المناسبة لإقامة التجمعات السكانية و همها توفر مياه الشرب وأماكن للزراعة، والملاحة والنقل. قد تلعب التضاريس دور مهم في تطور المدن فهناك مدن إسلامية كثيرة قامت و توسعت في المناطق السهلية . اما المناخ فله تأثير مباشر في قيام المدن ونلاحظ أن المطر يحدد بشكل فعال أماكن التجمع السكاني حيث تزداد كثافة وحجم التجمع في المناطق الغنية بالأمطار وتتناقص طردياً. وبالرغم من قلة الأمطار في بعض التجمعات إلا أن مصادر المياه كالأنهار والينابيع أصبحت مورد مهم مكان جيد لقيام المدن. كما أن التربة الغنية تلعب دور مهم في قيام و استمرار الحياة في المدن اما التربة الملحية والمعيقة للزراعة تسبب مشكلات اقتصادية وكوارث اجتماعية، وبالتالي فهي فقيرة بالتجمعات السكانية و نجد معظم المدن الإسلامية و السودانية توفرت لها بيئة طبيعية ممتازة .

من الخصائص المميزة للنمط الإسلامي هي الاستجابة للظروف المناخية واتجاهات الرياح، ودرجات الحرارة والتكيف معها في تخطيط وتصميم الهيكل العمراني وفضاءاته المختلفة. هذا التعامل الواعي مع الظروف البيئية بدأ من اختيار موقع المدينة في اعتماد المناخ واعتداله كأحد المقومات الضرورية عند هذا الاختيار، تعبيراً عن التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية، في توفير بيئة صحية وسليمة لسكان المدينة، وما اختير موقع مدينة بغداد من قبل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في عام 145هـ، إلا مثلاً على ذلك . ويبدو هذا التكيف واضحاً من وجود الفناء الداخلي في الوحدة السكنية لتوفير التهوية بالإضافة إلى الحماية من أشعة الشمس. هذا الفناء يقوم على مبدأ الانفتاح إلى الداخل، حيث يتم توجيه أجزاء الدار بأبوابه ومنافذه حول الفناء وتوفر الظل المناسب والتقليل من تأثيرات الرياح والأتربة، إذ يعطي للخارج جدراناً مرتفعة بسيطة قليلة الفتحات أو خالية منها، تخترقها فتحة واحدة واطئة هي مدخل الدار. كما تم مراعاة الجوانب المناخية عند تخطيط الشوارع و أهمها:-

1 - توجيه الشوارع من الشمال إلى الجنوب بحيث تتعامد مع حركة الشمس، كما أنها تساعد على مرور الرياح الشمالية خلالها لتظليل الشوارع، حيث يتطلب بعض المحددات العمرانية وكما يلي:

أ- ارتفاع المباني على جانبي الشارع بما يوفر الظل في هذه الشوارع.

ب- الشرفات البارزة وامتداد الطابق الأول فوق الشارع زاد من الظل.

ج- تغطية الشوارع التي تحوي أسواقاً بالكامل.

و لم يكتف تخطيط المدينة في التكيف مع الظروف المناخية فحسب و إنما استند أيضاً على مبدأ لا ضرر ولا ضرار في معالجة آثار التلوث البيئي الناجمة عن فعاليات السكان المختلفة، فعلى مستوى تخطيط استعمالات الأرض الصناعية، حددت مظاهر الضرر المادي الناتج من تفاعل النشاطات داخل التكوينات المعمارية للمدينة في ثلاث مظاهر رئيسية:

- الدخان الضار
- الرائحة الكريهة
- الصوت المزعج

و تطبيقاً لذلك وجب ابعاد الفعاليات التي تتسبب في ذلك كأفران الفخار والجير و المدايح والصناعات التي تصدر ايضاً صوتاً مزعجاً عن الوحدات السكنية التي تشغل القطاع الاكبر من حيز المدينة. اما الوقت الحاضر فقد تباينت الظروف و اتجهت معظم المدن الإسلامية الى التخطيط الحديث و ما جلبه من محاسن و مساوئ .

المدخل السكاني:

كما أوضحنا سابقا تأثرت المدينة الإسلامية بمدن ما قبل الاسلام، فإنها ايضا شهدت تحولات وتغيرات على نسيجها الحضري و السكاني بفعل عوامل متتابعة عبر الزمان والمكان، كان لها تأثيرها الواضح في ظهور انماط حضرية جديدة لم تشهدها هذه المدينة سابقا، هذه العوامل اهمها ارتفاع معدلات النمو السكاني. و نمو مراكز حضرية جديد و ازدهرت الحضارة الإسلامية.

أما في الفترة التي تلت بدأت المدينة الإسلامية تعاني من نقص في السكان بسبب الهجرة من الحضر إلى الريف، إذ كان أعداد سكان مدن مثل القاهرة وفأس وبغداد تقدر بمئات الآلاف قبل القرن السادس عشر هبطت إلى حوالي المائة ألف في مائتي ألف ثلاثمائة سنة. كما تعرضت بعض المدن الإسلامية مثل حلب وبغداد بعد ذلك إلى انتشار الطاعون الذي أدى إلى فقدان عدد كبير من سكانها ومع انهيار الإمبراطورية التركية في القرنين السابع والثامن عشر تعرضت المدن الإسلامية إلى حالات من الفوضى العمرانية. يلعب متغير السكان في الدول الحديثة التي شهدها العالم الإسلامي في الفترة الأخيرة دور كبير على تشكيل المدينة اذ ترتبط خصوصية المدينة ومساحتها بعدد سكانها وتوزيعهم وكثافتهم وانشطتهم الاقتصادية. والمدينة الإسلامية و السودانية شهدت ارتفاع في معدلات النمو السكاني بفعل عاملي الهجرة والزيادة الطبيعية للسكان. والهجرة التي شهدتها هذه المدينة لم يقتصر على سكانها الوطنيين فحسب وانما ارتبط ذلك بعامل الهجرة الأجنبية نتيجة السيطرة الاستعمارية لفترات زمنية متباعدة في مدن المغرب العربي في شمال افريقيا و في السودان من غرب افريقيا ومقارنة بمدن المشرق العربي. خلال فترة الاستعمار الأوروبي في سوريا ومصر ولبنان وبدخل العالم الإسلامي في دوامة الاحتلال والاستعمار -باستثناء الجزيرة العربية التي لم تتأثر بوطأة الاستعمار- صاحب هذا الوجود الاستعماري في العالم الإسلامي تغير جذري في اوضاع وخصائص الحيز الحضري لم يشهده من قبل و الذي دجل مع المستعمر شهدت المرحلة انشاء الكثير من المراكز الحضرية ، ففي المغرب مثلا انشئت مدينتا القنيطرة و الدار البيضاء وهذه الاخيرة كانت مركز تجمع ريفي بحجم سكاني 20000 نسمة سنة 1900 ، اصبحت تضم 102000 نسمة سنة 1921 . وفي الجزائر كانت الحالة خاصة نظرا لطول فترة الاستعمار واقتترانه بهجرة قوية للمستعمرين الفرنسيين، شهدت انشاء مدن صغيرة كثيرة خاصة خلال الفترة 1851-1840 ، كانت موجهة لإحكام السيطرة العسكرية على البلاد. هذه المدن تميزت بنمطها ونظامها الشبكي بشبكات متعامدة مهيأة للتجهيزات العسكرية والادارية و في السودان كان للحكم الإنجليزي دور كبير في توجيه السكان و إنشاء المدن الحديثة مثل عطبرة و بورتسودان ومعظم المدن على

طريق السكة حديد. وبوجود الاستعماريين امتزج التخطيط والاشكال الجديدة ذات النمط الاوربي مع الانظمة والاشكال التقليدية الموجودة مسبقا وبصفة عامة شهدت هذه الفترة ازدواجية في الاشكال الحضرية كما تم التعدي على المدينة الاسلامية وكان ابرز ذلك شق طرق واسعة وتمزيق النسيج التقليدي القديم وتحويل بعض الاحياء وتخصيصها للأوربيين (كلارك 1984م).

بخصوص الزيادة السكانية والهجرة الريفية شهدت المدن الإسلامية حالة تسارع في عملية التحضر، وبخاصة بعد فترة الاستقلال، التي شهدت حركة بناء وتشيد ضخمة وواسعة في معظم هذه المدن. وكانت هذه الاعمال تهدف بالأساس الى توفير حاجات ساكني المدينة من خدمات مجتمعية انعكست على تحسين الوضع الصحي والثقافي مما ترتب عليه ظهور زيادة في النمو الطبيعي للسكان. وقد اقترنت هذه الزيادة بحركة هجرة من الريف الى المدينة بسبب التفاوت التنموي لصالح للمدن لذلك اعتمدت معظم هذه المدن سياسات اسكانية عاجلة باستيرادها لأهطاط جاهزة غربية في عمومها وفيها اصبحت المجتمعات التقليدية فاقدة للتوازن نتيجة الادخالات التقنية والثقافية. فعلى سبيل المثال، ان العواصم القديمة مثل بغداد والقاهرة ودمشق تطورت واتسعت بعملية اضافة الجديد الى القديم فنتج عنها انقسام في تركيب المدينة، وهذا لم يحدث في مدن حديثة العهد في الوطن العربي، كالكويت ومعظم مدن الخليج الحديثة التي لم تنشأ الى جوار مدن قديمة عريقة بل اقيمت حديثا. ولم تظهر هذه التحولات في النواحي العمرانية فقط بل امتدت أيضا إلى الجوانب الاجتماعية والنظم الاقتصادية وتقهقرت بذلك القيم التي كانت تسود المدينة الإسلامية من قبل. ففقدت المدينة الإسلامية بذلك شخصيتها الحضارية ومقوماتها العمرانية.

أثناء فترة الاستعمار الغربي بين عامي 1800، 1950 حيث ظهر التأثير الغربي على المدن الإسلامية واضحا في المدن المصرية حيث تركزت معظم الأنشطة الاقتصادية والصناعية. الأمر الذي ساعد على النمو السكاني والعمراني الكبير خاصة في القاهرة التي زاد تعدادها من 260,000 نسمة عام 1800 م إلى أكثر من 2 مليون نسمة عام 1950 م. وفي نفس الفترة شهدت العديد من المدن سوريا وتركيا والجزائر نفس الظاهرة ولكن بمعدلات مختلفة من التطور استمرت الحضرية الزائدة في كل مدن العالم الإسلامي بعد خروج الاستعمار و ظهرت عناصر اثرت على نمو المدن و ازدهارها منها تدهور البنى التحتية مشكله النفائات بطء النمو الاقتصادي وغيرها من المشاكل الحضرية.

المدخل العمراني:

تستند استعمالات الارض في المدينة الاسلامية على حقيقة التكامل بين المكونات الدنيوية ضمن اطار المعتقدات الدينية وهو ما يعبر عنه بنمط الاستعمال المختلط للأرض حيث يتكون قلب المدينة من الابنية الدينية والحكومية و السوق و الفضاءات المرتبطة بها. يعتمد هذا النمط على القوى الروحية بكونها محور الحياة، فنجد الجامع يمثل مركز المدينة و يرتبط به السوق الذي يمثل المركز التجاري الرئيس للمدينة معبراً عن التفاعل المهم بين الجانب الروحي و المادي في المدينة الاسلامية محاطاً بالهيكل العمراني الذي يحتل فيه السكن النسبة الغالبة، يربط السوق الذي هو شريان الحياة الاقتصادية، بين مركز المدينة و اطرافها تتخللها صناعات يدوية و حرفية غير ملوثة، في حين تعزل الصناعات الملوثة خارج المدينة بما يؤمن سلامة ساكنيها من الاضرار التي قد تلحق بالبيئة.

أن التكوين العمراني الاجتماعي للمدينة الإسلامية يعتمد على الترابط الاجتماعي والعرقى هو المكون لأحياء المدينة الإسلامية. لذلك فإن وحدة الفكر والعقيدة في المجتمع الإسلامي والتي شكلت البناء العمراني للمدينة الإسلامية يربط ما بين الرباط في المغرب غربا وبين مشهد في إيران شرقا. كما يتميز النمط العمراني للمدينة الإسلامية كذلك بوجود سور يحيطها كخط دفاع عن المدينة ويحتل المسجد مركز المدينة في منتصف القصبة وتتبعه المدارس الإسلامية، كما تتركز حوله الحرف المرتبطة بالنشاط المركزي مثل تجليد الكتب والخطاطين وصناعة السجاد أو الأنشطة الحرفية التي تسد حاجة الريفيين فتتجمع حول البوابات الرئيسية للمدينة. ومن الشوارع الرئيسية للمدينة تتفرع الشوارع والطرق التي تتجمع حولها الأحياء السكنية حيث الهدوء والسكنية والظلال والراحة النفسية والارتباطات الأسرية. وإذا كانت القصبة التجارية قد تغطي بعض أجزائها فإن الشوارع المحلية للأحياء أيضا قد تغطي بعض أجزائها كما هو موجود في مدن شمال أفريقيا (مخلوف 2000م). وتتميز حوائط الطرق في المدينة الإسلامية بالبساطة وقلة الفتحات والارتفاع القليل الذي يتناسب مع عروض الشوارع. ومع بساطة التعبير المعماري للواجهات الخارجية فإن داخل المساكن يزخر بالثراء في التفاصيل المعمارية والزخارف الداخلية وهذه ظاهرة تعلو وتهبط من منزل إلى آخر تبع لقدرة صاحب المسكن. وهكذا تتأكد روح المساواة والبساطة والتجانس في الخارج كظاهرة اجتماعية مع ثراء الداخل تعبيرا عن الحرية الفردية. الأمر الذي يعكس القيم والتعاليم الإسلامية الموجهة لحركة الفرد والمجتمع. ويعتبر الفناء الداخلي للمسكن ظاهرة اجتماعية تتواءم مع الحاجة المناخية.

تربط الشوارع والازقة بين هذه الاستعمالات التي جاءت بتدرج و توزيع عضوي و انسيابي بحيث يحقق سهولة التواصل بين هذه الاستعمالات ويمتاز التشكيل العمراني للمدينة في فترة العصور الإسلامية بوجود عناصر معمارية متميزة تعبر عن محاولة الفكر المعماري لإيجاد الحلول المعمارية المناسبة لمناخ المناطق الجغرافية المختلفة في العالم الإسلامي. ان انظمة الحركة لا تتعارض مع الوحدة العضوية للنسيج الحضري في المدينة الإسلامية، اذ تشكل شبكة الطرق والمساكن المترابطة بالتواءاتها وانحرافات بانوراما بصرية تتحرك خلالها عين المشاهد عند تنقله في دروبها وازقتها التي تتسع حيناً وتغدو ضيقة حيناً آخر وهما يبعد الملل عن عين المشاهد الذي لا يشعر بالمسافة التي يقطعها. هذه الانظمة تهدف أيضاً الى غايات بيئية في الحفاظ على رطوبة الهواء لأطول فترة ممكنة في فصل الصيف، وغايات ثقافية - ترفيهية في تحقيق رغبة الساكنين بالاقتراب بعضهم من البعض الآخر. و بما يساعد على تبادل الافكار اضافة الى ما يثيره السير في الازقة الملتوية من تأمل بعيداً عن الضجر الذي يثيره السير في الشوارع المستقيمة.

المستوى الاول من الشوارع:

تمثله الشوارع التي تربط البوابات الرئيسية للمدينة بمركزها حيث يقع الجامع والاسواق الرئيسية.

المستوى الثاني:

تمثله طرق المحلة الرئيسية وتربط بين شوارع المستوى الاول ، وهي أيضاً بمثابة الشرايين الرئيسية التي تربط المحلات المتجاورة.

المستوى الثالث:

تمثله الطرق الثانوية في المحلة التي توفر بدورها محاور ربط للمناطق ضمن المحلة الواحدة التي لا تخدمها طرق المستوى الثاني. و الازقة الخاصة بمجموعة الدور التي تخدمها و يمكن ان ترتبط مع أي مستوى

من الطرق العامة في أعلاه. تعكس هذه المنظومة المترابطة من المسالك في هيكل المدينة ترابط مركزها بأحيائها ومحلاتها السكنية ضمان تدرج الانتقال وسهولة الوصول من الطريق العام الذي يحقق تكامل اجزاء المدينة، الى الازقة الفرعية التي يتداخل فيها العام والخاص، الى الرقاقات الخاص. وتعد الساحات الوسطية نقطة التقاء مجموع الشوارع او السكك او الازقة. هذا التدرج يؤدي الى تشكل الاحساس بالانتماء للمكان، كما انه يضمن التدرج في الرؤية من خلال الانتقال من فضاءات مكشوفة لأشعة الشمس الى فضاءات ظليه، بحيث يبقى مستوى البصر متوازياً. ان الخصائص السابقة هي التي اعطت للنمط الاسلامي القديم تميزه وخصوصيته مقارنة بأنماط حضرية اخرى، حيث تكتمل فيه الجوانب العمرانية بالجوانب الاجتماعية ووفق عوامل حضارية وقيم اجتماعية، لكن مرور الزمن ومع التوسعات الكبيرة التي شهدتها معظم المدن الاسلامية التقليدية، ظهرت انماط حضرية مغايرة ومختلفة تماماً عن النمط التقليدي، افقدت المدينة الاسلامية خصوصيتها بفعل عوامل متعددة اسهمت في اعطاء انماط حضرية مختلفة اذ يترجم كل واحد من هذه الانماط العوامل التي ادت الى ظهوره وترسيخه في نسيج المدينة مع باقي الاشكال، وذلك عبر فترات زمنية من توسع ونمو المدينة الاسلامية.

لقد استدعت النظم الحديثة في مد المدن بالمرافق والخدمات العامة إيجاد نمط جديد في التخطيط العمراني يتعارض مع النمط التخطيطي للمدينة التقليدية القديمة. وهكذا ظهرت أنماط جديدة من التخطيط العمراني في المناطق الجديدة وبذلك دخلت المدينة الإسلامية عصراً جديداً من التحول العمراني نتيجة للإنجازات التكنولوجية التي انتقلت من الغرب لتوفير شبكات الطرق للسيارات ومد شبكات المرافق العامة. وصحب ذلك بالتبعية أنماط من العمارة الغربية ظهرت في العديد من المباني العامة مثل البنوك والمحاكم والجماعات والمدارس والإدارات بل والقصور والمسكن الخاصة. الأمر الذي أثار حفيظة المفكرين والمعماريين في العالم الإسلامي وسعيهم للبحث عن صيغة يعود بها الوجه الحضاري للمدينة الإسلامية المعاصرة ملتزماً بالقيم والتعاليم والمناهج الإسلامية. وهو الأمر الذي أصبح مرتبطاً في الأساس بالتحويلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لبناء الحضارة الإسلامية المعاصرة. رغم ان السودان مر بمراحل مشابهة الا ان التخطيط الغربي بمعناه الفكري لم ينتشر في السودان الا على مستوى العاصمة القومية حيث عملت اربعة خطط ولم ترى النور بالشكل الذي خططت به.

المدخل الاقتصادي والاجتماعي:

و من الناحية الاقتصادية فان المدينة الإسلامية تعتمد اعتماد أساسي على الأنشطة التجارية في المدينة الإسلامية على الشوارع الرئيسية. الأمر الذي يميزها بالاتجاه الطولي للاستعمالات التجارية. كما تمتد بنفس الصورة الأنشطة الحرفية في شكل محلات وورش صغيرة متجاورة متعاونة مع بعضها في إنتاج السلع المختلفة. وعند دخول الصناعة في العالم الإسلامي تركزت في المدن مما اعطى المدينة الإسلامية قوة دفع جديدة و اصبحت تتحكم في محيطها الإقليمي بصوره قويه. و بارتفاع اقتصاد المدن اصبحت جاذبة للسكان مما جعل تتدفق السكان من الريف إلى المدينة سمة من سمات المدن الإسلامية. و اجتماعياً تشكل فعالية السكن عنصراً مهماً في التكوين المورفولوجي للمدينة الاسلامية، اذ تعد المحلة السكنية بخصائصها وصفاتها المميزة ترجمة حية للعلاقات والروابط الاجتماعية التي تسود المجتمع الاسلامي، وتعد الدار السكنية هي الوحدة الاساسية المكونة للمحلة (الكناني 1998م).

ان اهم ما يميز هذا النمط الحضري هو الاحتوائية التي تعني عمرانها اقتراب الناس و الأشياء بعضهم من

بعض، بعكس المسافات الواسعة التي تتباعد فيها العناصر التي تتواجد في الحيز الحضري. حيثما يكون الاقتراب شديداً، يتحقق الحضور المشترك وتسود الألفة و المودة، لان الاقتراب من البشر والاشياء يزيد من المعرفة بهما. ففي المناطق التقليدية، التي ما تزال فيها بقية من بقايا الاطر العمرانية الاصيلية، تكون معدلات التلاقي اليومي عالية ويسود فيها التعامل وجها لوجه. ان هذه الحميمية التي توفرها الاحتوائية العالية التي تشغل فيها الحواس والانسانية والعواطف كافة تمنح الحياة اليومية ديناميكية وازدهارا تتجليان في الوحدة السكنية. فكما هو معروف فان الصفة المميزة للرئيسة للبيت الاسلامي هي وجود الفناء الداخلي المفتوح مربع او مستطيل الشكل، تنفتح عليه غرف الدار وفضاءاتها جميعا، تعبيراً عن حالة التقارب والتلاحم الاجتماعي لأفراد ذلك البيت في تلاقهم وتحاورهم وتسامرهم، كما انها تعكس من جانب اخر خصوصية اجتماعية في الترابط الاجتماعي يبدأ بالأسرة في تلاحمها و خصوصيتها في تصميم الوحدة السكنية اعتماداً على المؤثرات التخطيطية الآتية:

التوازن بين خصوصية الاسرة و تفاعلها مع المجتمع .

تحقيق حرمة السكن من خلال :

- تجميع الوحدات السكنية وفق نظام معين يحقق هذه الحرمة.

- علاقة المسكن البصرية مع مجاوراته.

- ارتفاع الأبنية و الشرفية.

هذا الترابط الاجتماعي ينعكس تدريجياً بين مكونات المدينة من فناء البيت الى الزقاق والساحة والجامع الكبير والسوق وصولاً الى المدينة كلها. ان هذه الصفة مع الصفات الاخرى للمحلة السكنية وتجانس الوحدات السكنية من حيث الابعاد والتحام وتلاصق كتلها تكون تركيباً معمارياً يحقق بخصائصه المميزة المتطلبات الاجتماعية المرغوبة (رشوان 9891). يتبلور هذا التكامل العمراني الاجتماعي من خلال الاساس الذي تستند عليه الاحياء السكنية للمدينة وهو الاساس الاجتماعي، على عكس احياء المدينة المعاصرة التي تعرف بمقياس مادي، فالأحياء تقوم على اساس الانتماء القبائلي او التبعية الدينية او العقائدية لا على اساس المستوى المادي و الاقتصادي. هذا التنظيم المكاني- الاجتماعي يقلل من مظاهر الحيف و التفرقة و التوتر الاجتماعي، ففي كل حي هناك الفقير والغني والجاهل والعالم وهذا من شأنه تحقيق الروابط بين الناس و اكساب الافراد شعوراً بالثقة بالنفس ومن ثم الاندماج والانسجام مع الاخرين.

النتائج:

- لعب العامل الثقافي الإسلامي دوراً مهماً في ظهور المدن وتشكيلها، و نمت المدن بفضل التراكمات الثقافية التي عملها الإنسان في قيام واستمرار هذه المدن.
- معدلات التحضر ترتفع في البلاد الصناعية أكثر منها في البلاد الغير مصنعة وعليه فان نسبة سكان المدن ترتبط بالتصنيع وتقل بقلته وفي المدن الإسلامية اصبح التوجه الصناعي من اهم عناصر القوه الاقتصادية.

ان معظم دول العالم الإسلامي تأثرت بالتطورات الحديثة ويظهر ذلك جلياً في ناحيتين:

اولها ازدياد عدد المدن من فتره لأخرى.

و ثانيها توسع المدن القائمة في دول العالم الإسلامي وفي السودان.

الهوامش:

- (1) رشوان -حسين عبد الحميد- المدينة «دراسة في علم الاجتماع الحضري» - المكتب الجامعي الحديث- جمهورية مصر العربية - الإسكندرية -1989م.
- (2) بروفيسور كلارك -جون -جغرافيا السكان -دار المريخ -المملكة العربية السعودية - الرياض -1984م.
- (3) عثمان محمد عبد الستار ، «المدينة الاسلامية » ، مطابع الرسالة ، الكويت ، 1988 ، ص 6
- (4) الكنانى ، كامل ،سهام خروقة ،«الاعتبارات الاقتصادية في انشاء وتطوير المدينة العربي و الاسلامية » مدينة بغداد المدورة ، مجلة المخطط والتنمية - جامعة بغداد ، ع 8 ، 1999 ، ص 5
- (5) الموسوي ،مصطفى عباس ،«العوامل التاريخية النشأة وتطوير المدينة العربية الاسلامية » بغداد ، 1982، ص 47
- (6) مخلوفي ، فهيمة ، «تحليل الانماط السكانية في المدينة العربية الاسلامية ، دراسة تطبيقية لمدينة قسنطينة - الجزائر »، رسالة ماجستير / مركز التخطيط الحضري و الاقليمي للدراسات العليا - جامعة بغداد ، 2000، ص 15 - 16
- (7) الكنانى ، كامل ، علاء الدين عبد الرحمن « التجاوزات على استعمالات الارض للأغراض السكنية في مدينة بغداد » مجلة المخطط والتنمية / مركز التخطيط الحضري والاقليمي للدراسات العليا - جامعة بغداد، ع 6 - 1998 ، ص 20- 4 .